عبد الرحمن شكرى

شاعر نظم كثيرًا ، ثم سكت طويلا . أخرج للناس من ديوانه سبعة أجزاء فى مدى عشرة أعوام ، ثم صمت صُماتًا هائلا مقلقًا أكثر من خمسة عشر عامًا ، ولا يدرى جمهرة الناس لم صمت فلم يعد يهتم بنشر شعره فيهم ؟

أخرج الجزء الأول من ديوانه عام ١٩٠٩ وهو فى العشرين من عمره ، وفى ذلك قال حافظ إبراهيم :

أفى العشرين تعجز كل طوق وترقصنا بإحكام القوافى

ومهما يكن مبلغ هذا البيت من الصحة ، فإن شكرى قد خرج على الناس حقيقة بشىء جديد غير مألوف : خرج عليهم بديوان غريب لم يسبقه إلى الظهور ديوان غريب مثله ، اللهم إلا ديوان خليل مطران الأول ، وفى هذا الديوان تطالع أول ما تطالع قصة «كسرى والأسيرة» وتخرج منها معتقدًا أن خليل مطران قد أثر شعره

فى الشعراء الشبّان ، ثم تطالع بعد ذلك خطرات فى المساء وهى «مناجاة يوم مضى» وفى هذه الخطرات تتحرر القطرة الوجدانية وتنطلق العاطفة من عقالها ، ولكن الناقد الأدبى يلاحظ على الشاعر فى هذه القصيدة أنه ينظر إلى الحياة نظرة قاتمة وهو لا يزال فى ميعة الشباب . ولقد واكبته هذه النظرة فى مختلف دواوينه واتسعت اتساعًا كبيرًا حتى أصبحت من عناصر شعره الأساسية . وهكذا تمضى فى مطالعة الجزء الأول من الديوان فلا نقع على الموضوعات القديمة التى أكل الدهر عليها وشرب ، وملها السمع من كثرة التكرار ، وإنما تدهشك الطرافة التى تلمسها فى كل قصيدة ، بل فى كل فكرة من قصيدة . ويختتم الشاعر هذا الجزء بقصيدة طويلة جدًّا من الشعر المرسل Blank Veres تحت عنوان «كلمات العواطف» . ولعل هذا الحدث كان الأول من نوعه فى هذه اللغة ، ولعله أثار ضجة وصخبًا واختلافًا كبيرًا . ولقد كان من الصعب على الآذان أن تفهم هذا الضرب الجديد من الموسيقى الشعرية ، فكان لها أن تثور وأن تضج .

والقصيدة بعد هذا مجموعة من الخواطر والعواطف تغلب عليها العبرة فى بعض المواقف ، وأحب أن أقول إنها ليست فى مستوى قصائد الجزء بالرغم من الحرية التى أعطيت للشاعر فى صوغ القافية ، ولست أدرى سر ذلك القصور على التحقيق ، وربما كان

منشؤه أن الشاعر ألفى نفسه أمام ضرب جديد من النظم لم تألفه روحه هو الآخر فاضطرب حتّى جاءت خواطره مضطربة كذلك ، وإن كان فى بعضها جمال كثير كما فى قوله :

إذا عاث القوى فلا تراعوا فإن الظلم نعش للظلوم

ويظهر أن شكرى أولع بهذا الشعر المرسل حقًّا ، فإنك تراه فى ختام الجزء الثانى من ديوانه قد نظم فى (واقعة أبى قير) قصيدة من هذا الطراز ، وكذلك فعل فى « نابليون والساحر المصرى » ولقد وفق شكرى فى هاتين القصيدتين توفيقًا لا بأس به ، ومهما يكن من شىء ، فهو الذى أدخل هذا الضرب الجديد من الشعر فى هذه اللغة ، ووضع الحجر الأساسى له !

وشكرى شاعر محب عظيم الغيرة ، مضطرب الفكر ، منهلع الفؤاد ، كريشة فى مهب الريح ، متطير أبلغ التطير ، وكمثل على ذلك الاضطراب النفسى الذى لا حد له ، قصيدته « جنة الحب وجحيمه » من الجزء الثالث : ففى هذه القصيدة يقول الشاعر لحبيبته إنها كل أمانيه فى الحياه ووصلها نعيمه الذى لا يبتغى سواه ، وهجرها الجحيم الذى يصلاه ، ثم يخرج من هذا الحديث إلى قوله :

غداً ينال الممات منّا فمن دفين ومن رميم
فخففوا هجركم قليلا فالموت من خلفنا غريم
وكلنا بالحياة صَبٌّ لكننا للردى خصوم !

وهكذا نرى الشاعر يمزج نظرته الغرامية بالألم الفكرى القاتل !

ونظرة شكرى إلى النساء نظرة مريبة ثائرة بالرغم من حبه العظيم لهن ، ولعل ذلك جاء لتطيره وإرهاف عواطفه وكثرة ما يرين الشك على قلبه . أنظر إليه يخاطب (الحسناء الغادرة) بقوله :

ولبستِ أهل الحب حلية ساعة أو خلعة أبدلتها ببديل
فإذا نأى لك عاشق أنسيته إن المقيم لديك خير خليل
وحسبت غدرك كافلاً بشفائه من دائه . والغدر غير كفيل

فهنا عاشق يئن ويتوجع لغدر حسناته الرقطاء . . . ثم اسمع له فى «قبلة الزوجة الخائنة» :

قد قبّلتنى قبلة مرة كأنها من حمة العقرب
تحسب أنى راتع غافل ألذ ما تدنيه من مأرب
ماء من الحسن روينا به عاد كوعد البارق الخلّب

وفى هذه الأبيات تلمس غضبة الشاعر وثورته العاصفة وجنونه

الفكرى . ولست أدرى مَنْ غير المرأة يحرك عواطف الشاعر ويذهله عن كل شىء؟ وهاك قصيدته «الزوجة الغادرة» من روائع الشعر العاطفى المصبوب فى القالب القصصى . ولقد كنت أحب أن أنقل منها أبياتًا ولكننى آثرت الكفّ عن ذلك حتى أشوّق القارئ إلى مطالعتها فى الجزء الثالث من ديوان شكرى .

وهناك سوى هذه القصائد كثير من الشعر مبثوث فى أجزاء الديوان يُظهِر لنا فى جلاء ووضوح نظرة الشاعر إلى المرأة ورأيه فيها .

* * *

أغرم شكرى بالطبيعة غرامًا عظيمًا . فأنت تراه يصور لك مفاتنها فى قصائده الكثيرة فى دقة عجيبة . تدفعك إلى العجب . وهذه قصيدته (وصف البحر) من مفاتن شعر الطبيعة الممتزج بالعواطف النفسية ومنها يقول :

وربّ سفين يقرع النجم مجدها
تقاذفها مستوفز اللج غامر
يروّعها فى كل (هوجاء) موعد
ويسعى لها قبر من الماء سائر
فليس الغمام الغمر إلا رياحها
وما المرسلات الهوج إلاّ الهوامر

وما ذلك اللج الذى فى سمائها
بأهدأ من لج تمته الزواخر
إذا ذكر الملاح زوجًا وصبية
طغى شجن فى مرجل الصدر فائر
ينفس عنه بالغناء وكفه
تقيم على جفن به الدمع حائر
وتذهل عن مهد الوليد فتاته
إذا ما رمتها بالوعيد الزماجر
وما هى إلا دولة طار شأنها
فأوحت إليها بالقضاء المقادر
وما هى إلاّ صولة ثمت انجلت
وأكبر غرقاها المساعى البوائر

فى هذه القصيدة امتزاج الأوصاف الطبيعية بالتصوير العاطفى الإنسانى ، وشكرى لا يكاد يتناول صورة من الصور الطبيعية دون أن يمتزج بها الامتزاج الكلى .

وهو فى « عابدة الشمس » يصف تلك الزهرة الجميلة وصفًا بارعًا قد استند إلى النظرة العلمية الصحيحة فيقول :

تديرين نحو الشمس وجهًا كأنما
ترينا بوجه الشمس ما كتب الدهر
فما حسرت عيناك من طول رقبة
ويا رب ترصاد ينوء به الصبر
أتبغين فى تلحاظها شكر نعمة
هى النور لم يحسب عليك له أجر
أتسقيك من أضوائها بلواحظ
وللشمس لحظ لا بطيء ولا شزر

ثم يمزج الشعور النفسى بالتفسير الطبيعى حيث يقول :
إذا غربت أرخيت أجفان عاشق
يناجى حبيباً دونه للدجى ستر

وكذلك هو فى مقطوعته «عيون الندى» يمزج الحب بالطبيعة إذ يقول :
عيون الندى كونى على الزهر إنه
بطل على العشاق منك ويشرف
فليس عيون الغيد أشعلها الصبى
بأروع فى لألائها حين تعطف

ولا أطفأت منك الغزالةُ رونقاً
على الروض جذلان المدامع يذرف

ولا زال مكسال النسيم إذا سرى
على روضه يحنو عليك ويرؤف

يهزك هز الظئر مهد وليدها
فلا المهد يشكوها ولا هى تعنف

وما زال غريد العصافير واقعاً
على الزهر يحسو منك رياً ويرشف

وفى قصيدته «أنفاس السحر» صورة طريفة للطبيعة فى هذا الوقت ، ومنها يقول :

وكم فى الدجى من بديع الغرر مناظر تصبى الفتى ما نظر
وميض النجوم بوجه الغدر ولون الدجى حول ظل الشجر
نظرت إلى النجم لما سفر ثقيل النعاس بعيد النظر
سويعة للقلب فيها عبر يهيج الخيال بها والفكر
فياليلة من ليالى السمر تريق علينا ضياء القمر
تطيب الأمانى بها والذكر وتنشقنا من نسيم السحر
جنينا من الحب خير الثمر ونلنا من اللهو أقصى وطر

وعندى أن هذه المقطوعة الغنائية من أفنّ أغانى الطبيعة فى الشعر العربى ، وهى حرّية بأن تلحن تلحينًا بارعًا يتناسب مع روعتها . ولقد لاحظت أخيرًا أن بعض الشعراء الشبان قد تأثر بهافنظم فى موضوعها وبحرها وقافيتها مقطوعة أخرى عن الطبيعة الريفية لا تكاد تخرج معانيها وصورها عن معانى هذه المقطوعة وصورها البارعة حقًا .

ولقد عرفنا شكرى متجهم الوجه حزين النفس منقبض الفؤاد ينظر إلى الدنيا والكائنات بمنظاره الأسود ، بيد أن حبه القوى للطبيعة يجعله فى بعض الأحيان ينظر إلى الدنيا نظرة المستبشر الطروب ، وهذا هو فى قصيدته «الحسن مرآة الطبيعة» يقول لحبيبته :

قم بنا نختلس الزهور من الحب ... ونسقى الرحيق والسلسبيلا
وأرى البدر فوق وجهك يابد ... ر نعيمًا جمًا وحسنًا صقيلا
قم بنا نعشق الحياة حبيبى ... لا تدعنى متيمًا مخذولا
أنت مرآة ما يجئ به الكو ... ن من الحسن بكرة وأصيلا

أجل ، هو يعتقد ان المرأة إن هى إلا مرآة لكل مظاهر الوجود ، وصور الحياة ، ثم اسمعه يقول بعد ذلك :

فأرى فى الصباح منك ضياء
وأرى فى المساء منك ذبولا
وأرى فيك للظهيرة حرًّا
وفتورًا لذًّا وظلا ظليلا
وأرى يك نسمة كليالى الصيف
حيث النسيم يسعى عليلا
وأرى منك فى الخريف شبيهاً
ثمرًا يانعًا وزهرًا جميلاً

ثم لا يلبث حتى يتحول إلى نظرته السوداء القاتمة التى سبق أن ألمعنا إليها فيروح يقول :

كم جميل يزهى بحسن عميم
حجب الموت لحظه أن يصولا
ذو بهاء ونضرة وضياء
منع الموت أمره أن يطولا
أكلته الديدان ميتًا وقد كا
ن يعاف العناق والتقبيلا

وهذه الالتفاتة تشعر المرء بدناءة العيش وحقارة الدنيا ، وهى

وإن كانت لا تحوى فكرة جديدة ولا تضم صورة غير مألوفة إلا أنها تصور لنا الاضطراب الفكرى الذى يسود فكر الشاعر ويغطى على مشاعره جميعاً ، فهو يبتدئ قصيدته فى ثوب الاستبشار والطرب ، ثم يختمها فى ثوب البكاء والحداد الكئيب ! ويعجب المرء كيف تتحول المشاعر فى سرعة غريبة هذا التحول العجيب ولكنه شكرى الذى يحدث منه ذلك ، وشكرى عالم آخر من الإحساس والعواطف لا يخضع لقوانين البشر المألوفة ولا يتفق مع سواد الناس فى طرق الفكر والتخيل والشعور !

ويبدو لى أنَّ إرهاف الإحساس عند شكرى قد شارف به الجنون ، فهو فى قصيدته (بالله ما تفعل لو بلّغوك) تنتفض روح الشاعر انتفاضة شاملة فيها رعب وفيها هلاك ودمار . اسمعه يقول فى ختام هذه القصيدة مخاطباً محبوبه :

بالله ما تفعل لو بلغوك ... أنى أسعى عامدًا للهلاك
لما مللت العيش من بعدكم ... سقانى السم الذى لاسقاك
جرعت منه جرعة كأسها ... يروى صدى القلب الذى قد هواك
يا عجباً لو كنت لى راحماً ... أحرقة الرحمة تكوى حشاك ؟
إضحك ولا تحزن لما نابنى ... الجسم والروح جميعًا فداك !

ودواوين شكرى كلها غاصة بهذه الحيرة المضطربة التى تصدر عن قلب مبلبل ووجدان متطير. ولعل شكرى قد ربح ربحًا عظيمًا من وراء هذا التطير الذى ملك عليه مشاعره جميعًا، ولكنه كذلك قد بعث فى شعره شيئًا من الإضطراب والغموض فى بعض الأحيان.

* * *

وكان نتيجة لهذا التطير الغريب أن أولع شكرى بالأفكار الشاذة السوداء ولعًا عظيمًا، ولعله الشاعر الأول الذى نظم فى موضوعات الشذوذ نظمًا قويًا محيطًا. فهو فى قصيدة «الجمال والموت» يفرق من شبح الفناء، ويروح يقول وكأنه خبر عالم الموت والفناء حقًا:

فرأيت الشباب فوق أكفانًا ... وحولى جماجمًا وعظاما
ورأيت الظلام بالنظر الآمل ... أبغى من الظلام ملاما
إن هذا الظلام باب إلى الموت ... نراه وراءنا وأمامنا

ويشتد هلعه من شبح الموت فيروح يناجى حبيبته الميّتة فى لهفة أسيفة:

عانقينى فرب صدر خفوق ... ظل يحنو عليك عامًا فعاما
واجعلى ساعديك عقدًا لجيدى ... واجعلى معصميك فيه تماما
عانقتنى فعانق الداء جسمى ... وكأن الخيال صار رماما

ورأيت العظام تعرى من اللحم (م) وقد فارق البهاء العظاما
أبعدى عن مشمى النفس المر فقدمًا شممت منه البشاما
أبعدى فاك ذاك عن شفتى الظمأى (م) فقد أبدل الرضاب لغاما

ويختم القصيدة بهذا البيت الرائع :

بينما أنتِ كالضياء بهاء إذ تعودين رمّة تتحامى

وهو فى قصيدة « صوت الموتى » فى خيال وهجس ووهم كثيب .... اسمعه يقول :

ألا إن للأموات صوتًا كأنه
خرير المياه الجاريات على الصلد
ويحكى حفيف الغصن فى لين وقعه
وطورًا كأصداء الطبول على بعد
ويعول أحيانًا كإعوال ثاكل
رمتها صروف الدهر فى الولد الفرد
يئن أنين الريح عند خفوتها
ويعوى عواء الذئب فى المهمه القفر
ويصرخ أحيانًا فيحكى صراخه
صراخ العباب الغمر فى لجج البحر

يئن أنين الليل إن هدأ الورى
وطوراً له صوت كحشرجة الصدر

ويكاد شكرى يختص بالموت والموتى فى شعره دون سائر الشعراء. فلقد بلغ فى تصوير الموتى وأحاسيس الأحياء حيالهم مبلغًا عظيمًا من صدق التعبير وقوة البيان. ولشكرى غير ما عرضنا من قصائد الموت، قصائد «ضوء القمر على القبور»، و«الموت والنخيل»، و«النساء فى الحياة والموت» وسواها كثير، وكلها من إرهاف الإحساس وبلبلة الوجدان وإدجان الخواطر بحيث لا تفترق عن اللون الذى عرضناه كثيرًا.

* * *

يبقى بعد هذا الجانب الأهم فى شاعرية شكرى ألا وهو الجانب الرمزى، وإنى أعده المؤسس لهذا المذهب فى شعر هذه اللغة الحديث.

انظر إليه فى قصيدته «معان لا يدركها التعبير» إذ يقول:

كم من معان يود لو صاغها المر
وحلى بها وجوه البيان

هى ملء الضمير لم يبلغ اللفـ
ـظ مداها ولم تذلها المبانى
كلما رام أن يعبر عنها
أنفت أن تنال بالآذان
فهى عذراء لا تحن لناء
وهى عذراء لا تلين لدانى

إلى أن يقول فى ختامها :

إن وأد الأبناء أهون خطبًا
وأثامًا من وأد تلك المعانى
ذل من خاف لومة الناس فى قو
لة حق فلج فى الكتمان

وهو كذلك فى قصيدة « الحاجات المتزجة » تختلج فى نفسه أمور غامضة يحاول التعبير عنها فلا يكاد يبلغ غرضه إلا عن طريق الرمز والإبهام ، فهو يقول :

كم حاجة للنفس ممزوجة بحاجة الجسم كخمر وماء
كذلك الحب به شهوة الجسـ ـم وروى للنفوس الظماء
ونفحة الزهر بها شهوة الأنـ ـف إذا سيقت بريح رخاء

إلى أن يقول :

والحس باب النفس كم والج
منه إليها بالحجى والغباء
إن عناء الجسم فى فعله
يغرى بنفس المرء برح العناء
ورب داء والج جسمه
يصاب عقل المرء منه بداء

وله فى « دفة قديمة » ملقاة على شاطىء البحر صورة رمزية حالمة يقول فيها :

لقد جار الزمان عليك حتى
حكيت عزيمة الرجل الضعيف
تصرفك الأكف وكل عزم
يؤثر فيه تصريف الصروف
وللأهواء فى الآراء فعل
كفعل فيك للريح العنيف
وما هجروك من عبث ولكن
(م) غايات الوسائل فى الحتوف

كذاك الناس مثلك والليالى
وسائل للقضاء وللصروف
كذاك العيش عيش الناس طرًّا
وميلتهم إلى الأمل الصدوف

وهكذا عبد الرحمن شكرى شاعر رمزى غامض الصور فى الكثير من شعر الحالات النفسية ، وأكبر الظن عندى أن اضطراب نفسه وتقلقل خواطره هما السبب الأول فى غموضه وجنوحه إلى الناحية الرمزية ، ولكنه على كل حال لا يغرب كثيرًا ، ولا يتعب الأذهان ولا يرهقها بحل الرموز المبهمة كما يعمد إلى ذلك بعض شعراء الفرنجة المعاصرين ، وإنما هو يحاول التوارى بالصورة التى فى ذهنه عن العقول بعض الشىء ، ولكنه على كل حال، لا يختفى عنها تمامًا . وهو فى قصيدة «كلمات نفس» يصور لك نفسه صورًا غامضة ممتزجة فى قوله :

طورًا أكون كبعض الحبا ء لج به العاصف الثائر
وطورًا أكون كذات القلو ع هم بها الهائج المائر
وطورًا أكون كأرجوحة يرجرجها طفلها الجامح
وطورًا أكون كغصن الجنى يميل به الثمر الصالح !

فهذه القلقلة الفكرية الصريحة من شأنها أن تبعث على الغموض فى التعبير ، وأحسب أن عبد الرحمن شكرى شاعر رمزى بطبعه وليس إلى التعلم والثقافة الرمزية سبيل إلى عقله الميال بطبعه إلى الشعر الرمزى . وهو فى قصيدة (الصنم المكسور) يعطى صورة رمزية للحب الضائع المفقود فى قوله :

عابد يبكى على صنمه ... عاف ورد العيش من سقمه
عابد من حسنه صنماً ... خال كل الفضل فى صنمه
حطمته قولة فهوى ... كحطيم الجص منهشمه
كنت لى حلماً ألوذ به ... خاب من يبكى على حلمه !

إلى أن يقول :

كان قلبى معبداً لكم ... ويح قلب ريع من صنمه !

* * *

ليست هذه كل مظاهر شاعرية شكرى ، ولكنها أثارة منها ، أما شاعريته فتحتضن الحياة جميعها ، وتصور الوجود بأسره ، لأنه شاعر عبقرى ، لا يقف دون التعبير عن شعوره حيال الكون كله . وهو وإن كان برز حقًا فى شعر الموت والجنون وفى الشعر الرمزى إلا أن ذلك لا يعنى أنه قصرَّ فى قصائده العاطفية أو التصويرية

أو الطبيعية . فلشكرى فى كل باب شرف أى شرف ، وكفى أنه فى قصيدته (أبى الهول) أتى بصور بارعة استفاد منها المرحوم شوقى بك عندما كتب قصيدته عن أبى الهول فيما بعد ! ولا يعيب شكرى شىء سوى عدم الاحتفال بالموسيقى الشعرية فى بعض الأوقات وعدم العناية باللفظ ، وهو ما يعاب على أكثر المجددين .

نحن نناشد شكرى أن يخرج عن صمته الطويل وينشر شعره الذى نظمه منذ خمس عشرة سنة تقريباً . ونحن على يقين أنه مجموعة بارعة من الشعر القوى الجديد الذى سيغذى النهضة الشعرية الحاضرة دون مراء[1] .

---

(١) استجاب شكرى لهذا النداء وانطلق ينشر بعد صدور الطبعة الأولى قصائده ومقالاته وأبحاثه القيمة فى (الرسالة) و(أبوللو) وسواهما من المجلات الأدبية .